وزارة التعليم العالي والبحث

العلمي

جامعة بغداد

كلية العلوم الإسلامية

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية – فصلية - محكمة
تصدرها

كلية العلوم الإسلامية

جامعة بغداد

العدد: ١

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: (٦٣٣) لسنة ١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهج المعرفي في القرآن الكريم

اعداد
الدكتور محمد صالح عطية
أستاذ التفسير المساعد
في كلية العلوم الإسلامية

المقدمة:

الحمد لله الذي أرشد العقول إلى توحيده وهداها، وأبطل ببراهين الحق شبه الباطل ومحاها، وأصلي وأسلم على خير الخليقة وأزكاها وأبراها وأتقاها وعلى آله وصحبه الذين ساروا على هدي سنته وتمسكوا بعراها.

وبعد: فأن القرآن العظيم عد البحث عن الحقيقة ضرورة، ولذلك أختط منهجاً للوصول اليها، كي يسلك المسلم خطواته بفضل مازود به من مدركات ظاهرة وباطنة، ولما كانت هذه المعرفة تبصر بكنه الوجود اهدافاً وغاية وبمقام الانسان تكليفاً ومسؤولية فهي تبين الاسس الايمانية وتقيم الروابط بين الخالق والمخلوق، وأن منهجاً هذه سمته جدير بأن يبحث لأهميته في الحياة الانسانية، ولأجل الوقوف على معالم هذا الموضوع فقد سلكت منهجية اتسمت بتتبع الآيات القرآنية التي تخص الموضوع فقسمتها على أربعة مجاميع حسب ماترمي اليه من اهداف فوجدت ان كل مجموعة تصب في جانب من جوانبه، ولذلك كانت خطة بحثي تتكون من مقدمة واربعة مباحث وخاتمة، تضمنت المباحث : أسس المنهج ووسائله وخطواته وضوابطه، وختم البحث بأهم النتائج، أسأله تعالى ان يجعل هذا البحث مساهمة موفقة لخدمة القرآن العزيز بما يعود على الانسانية من نفع، أنه على مايشاء قدير وبالاجابة جدير.

المبحث الاول

أسس المنهج المعرفي

لقد دعا القرآن الكريم الى منهج علمي واضح المعالم يقوم على اسس متينة تمكن الوصول إلى الحقيقة المبحوث عنها نوضحها فيما يأتي :-

الاساس الاول : بني على عدم قبول الانسان لشيء على أنه حق يقيني إلا اذا قام دليل قاطع، ويتمثل هذا في قوله جل وعلا ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً او نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[1] فهو بهذا الاعتبار يعد القضية حقاً بقدر الحجة ومتانة الدليل، وما لم تسعفه حجة فذلك شك عاب القرآن أهله بقوله سبحانه ﴿وان تطع أكثر في الارض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾[2] لانهم استبدلوا الوهم والتخرص باليقين، وعلى هذا الاساس يضع العلم القضايا المطروحة على ساحته موضع البحث والتدقيق كي يصل إلى حكم قاطع فيلحق هذه القضية بالحق وتلك بالباطل بناء على قوة الدليل وتهافته، لأن الظن لا يقوم مقام اليقين ولا ينوب عنه ويفضي آخر المطاف بصاحبه إلى وهم باطل[3]، قال تعالى ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ان الظن لا يغني من الحق شيئاً ان الله عليم بما تفعلون﴾[4]

الاساس الثاني : يقوم على منع التقليد الاعمى، أي عدم الاخذ بالرأي من غير دليل لا لانهم عقلوه ولكن انسياق وراء الاباء وافعالهم، والقرآن قد شدد النكير على مثل هؤلاء بقوله تعالى ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[5] فالقرآن يدعو اتباعه لتحكيم العقل فيما يعترضهم من امور، والعقل المراد هنا هو (العقل العام أو العقل المطلق الذي ضبطت

---

[1] البقرة – الآية : ١١١

[2] الانعام – الآية : ١١٦

[3] أنظر الاسلام في عصر العلم : ٣٣-٣٤ والاسلام دين الهداية والاصلاح : ٢٨-٣٠ وروح الدين الاسلامي : ٢٤٥-٢٤٦

[4] يونس – الآية : ٣٦

[5] البقرة – الآية : ١٧٠

قوانين تفكيره عن طريق الاستقراء)[6] وبأستخدامه يتم الوصول الى الدليل القاطع ولذلك دعانا القرآن في آيات كثيرة الى التعقل والتدبر منها قوله سبحانه: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[7] وقوله ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[8]

الاساس الثالث : يؤكد اطراد الفطرة وبقاء سنن الله من غير تغيير في الكون الفسيح، وهذا ثابت بقوله سبحانه ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[9] وقوله تعالى ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾[10] وقوله عز وجل ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾[11] وهذه الايات واضحة في أستمرارية السنن واطراد الفطرة من غير تحويل ولا تبديل، ولاسيما في الانسان والحيوان والنبات والجماد في الفرد والجماعة، ولما كانت الفطرة ثابتة فلابد ان تكون متوافقة لان عدم توافقها يستلزم تناقضها وبالتالي يؤدي الى تناقض الفطرة وهذا باطل لا يقره القرآن بقول سبحانه ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[12] فاذا انتفى التفاوت في خلق الله سبحانه لزم انتفاء التناقض لان انتفاء الاصغر يستلزم انتفاء الاكبر[13].

الاساس الرابع : بني هذا الاساس على دقة المشاهدة وتركيز الملاحظة فيها يتمكن الانسان من الوصول الى الحقيقة ويجانب الوهم ولاسيما إذا أحسن استخدام منافذ المشاهدة التي عن طريقها يكتسب علماً ويزداد معرفة[14]. والقرآن الكريم دعا إلى استعمال الحواس وحض عليها ومن ذلك :

---

[6] الاسلام في عصر العلم : ٣٦ وأنظر حركة التغيير الاجتماعي فغي القرآن : ٩٦

[7] الرعد – الآية : ٤

[8] محمد – الآية : ٢٤

[9] الاحزاب – الآية : ٦٢

[10] الاحزاب – الآية ٦٢

[11] فاطر – الآية : ٤٣

[12] الروم – الآية : ٣٠

[13] أنظر الاسلام في عصر العلم : ٣٧-٣٨ وحركة التغيير الاجتماعي في القرآن : ٩٧-٩٨

[14] انظر المصدرين نفسيهما : ٣٨-٤٠ و ٩٨

١. دعوته الى استعمال البصر مع العقل في قوله تعالى ﴿قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[١٥]

٢. دعوته الى استعمال السمع مع العقل في قوله تعالى ﴿أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها﴾[١٦]

٣. دعوته الى استعمال السمع والبصر مع العقل في قوله سبحانه ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون﴾[١٧]

ومما تقدم يتبين ان القرآن بنى منهجه المعرفي على اسس قوية وطرق علمية دقيقة تبدأ بالمحسوس وتنتهي بالنظرة المجردة التي ميزت الحضارة الاسلامية عن غيرها لانها حصنت نفسها بحقائق القرآن ونأت بمنطلقاتها عن النظرة السطحية فكان تأثيرها واضحاً في الفكر الحضاري والانساني سواء في أغناء الحضارات بالقيم او ارتياد الافاق او الاكتشافات.

المبحث الثاني

وسائل المنهج المعرفي

لقد أعتمد المنهج المعرفي في القرآن على وسائل عدة للوصول الى الحقيقة المبحوث عنها في الكون فبفضل مااودع الله عز وجل في الانسان من عقل وقلب وسمع وبصر ولمس وشم والتي تعد نوافذ يطل منها الانسان على الكون لتعود عليه بالعلم والتجربة والخبرة فيتعزز موقعه في الحياة ويؤكد تفاعله ويسدد سيرته، ولما كان الكون مصدر ثقافة الانسان دعانا القرآن الى استخدام هذه الوسائل وعدم تعطيلها بل جعلنا مسؤولين عنها فقال سبحانه ﴿ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾[١٨] ولأجل تأمين سلامة الوصول الى المعرفة

---

[١٥] العنكبوت – الآية : ٢٠

[١٦] الحج – الآية : ٤٦

[١٧] الاعراف – الآية : ١٧٩

[١٨] الاسراء – الآية : ٣٦.

لان الحواس قد تخدع وان العقل قد يزل فان الله جل وعلا أرسل الوحي لخاتم انبيائه ليكون طريق الأمان تهتدي به الحواس فتطمئن على اصداراتها وتجاربها وخبراتها لان صحيح المعقول لا يخالف البتة صريح المنقول، فضلا عن ان القرآن الكريم لا ينظر الى الحواس مجرد أجهزة فحسب، بل يعدها وسائل إدراك ووعي وتمييز ومن هنا سندرس وسائل المنهج في المطالب الآتية :-

المطلب الاول

الوحي

الوحي هو الوسيلة التي لا مراء فيها لنقل الاخبارات الغيبية، ولذلك يعد مصدر اليقين عند المسلمين وإيمانهم بما أنزل على محمد من الخالق العظيم، وطريق هدايتهم الى الرشاد بقول سبحانه ﴿فمن أتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[١٩] والقرآن الكريم قد اطلق على الوحي اوصافا تدل دلالة قاطعة على انه دليل معرفة ومنهج هداية ونور، وبالنور تتكشف السبل فيحصل الاهتداء قال تعالى ﴿كذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من يشاء من عبادنا وأنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[٢٠] وقال سبحانه ﴿الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بأذن ربهم الى صراط العزيز الحميد﴾[٢١] كما جاء ان الوحي حق قال عز وجل ﴿وبالحق انزلناه وبالحق نزل وما ارسلناك إلا مبشراً ونذيرا﴾[٢٢] وقال سبحانه ﴿ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾[٢٣] فاذا كان وحي الله حقاً فماذا بعد الحق إلا الكفر والضلال والتيه قال سبحانه ﴿فذلكم الله ربكم فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾[٢٤] ووصف وحي الله بأنه شفاء ورحمة قال سبحانه ﴿ياأيها الناس قد جاءتكم

---

[١٩] طه – الآية : ١٢٣.

[٢٠] الشورى – الآية ٥٢.

[٢١] ابراهيم – الآية : ١.

[٢٢] الاسراء – الآية : ٥.

[٢٣] آل عمران – الآية : ٧١.

[٢٤] يونس – الآية ٣٢

موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[٢٥] وقال تعالى: ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾[٢٦]

أما السنة فهي شقيقة القرآن لان الله سماها وحياً بقوله سبحانه : ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾[٢٧] ولان الله أمر بطاعة الرسول (بقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[٢٨] وفهم القرآن والعمل به لا يتأتى بغير العمل بالسنة المطهرة لانها : اما مفصلة لمجمله او مقيدة لمطلقه او مخصصة لعامة أو مؤكدة له، ومن هذا الفهم يعد القرآن قطعي الثبوت بأجماع المسلمين من لدن الرسول ﷺ وحتى يومنا هذا، ومالى ان يرث الله الارض ومن عليها، وذلك لأن أمين السماء بلغهُ أمين الارض ثم تواتر جيلا عن جيل مكتوباً في السطور محفوظاً في الصدور تحقيقاً لوعد الله جل وعلا ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[٢٩]

أما السنة المطهرة ففيها ثلاث مراتب : -

السنة المتواترة [٣٠] تفيد العلم اليقيني، والسنة المشهورة [٣١] تفيد العلم اليقيني ولكنها دون يقين السنة المتواترة. وسنة الاحاد[٣٢] تفيد العلم الظني الراجح ويستلزم العمل بها.

أما دلالة القرآن والسنة فقد تكون دلالة قطعية [٣٣] وقد تكون دلالة ظنية [٣٤]، وذلك تبعاً لصياغة النص القرآني أو النبوي، ومثال قطعي الدلالة قوله سبحانه ﴿أقيموا الصلاة﴾[٣٥] وقول النبي (: " لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها" [٣٦].

---

[٢٥] يونس – الآية : ٥٧.

[٢٦] العنكبوت – الآية : ٥١.

[٢٧] النجم – الآيتان : ٣و٤.

[٢٨] النساء – الآية : ٥٩.

[٢٩] الحجر – الآية : ٩.

[٣٠] السنة المتواترة : هو الحديث الذي رواه عدد يحصل العلم بصدقهم ضرورة، بان يكونوا جمعاً يحيل العقل والعادة تواطؤهم على الكذب ولابد من استمرار هذا الشرط من اوله الى منتهاه . الكفاية : ٥٠.

[٣١] السنة المشهورة : هو ماله طرق محصورة بأكثر من اثنين . نزهة النظر : ٢٣.

[٣٢] سنة الاحاد : هو ماقصر عن صفة التواتر، ولم يقطع به العلم وان روته جماعة. الكفاية : ٥٠

[٣٣] الدلالة القطعية : هي مادلت على معنى متعين فهمه منه ولا يحتمل تاويلا ولا أجتهادا. أنظر اصول السرخسي : ١/٢٧٧-٢٧٩ وعلم اصول الفقه – عبدالوهاب خلاف / ٣٥.

ومثال ظني الدلالة قوله سبحانه ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾[٣٧] وقول النبي (: " ليس في المال حق سوى الزكاة "[٣٨].

ومن هذا الذي قدمناه نجد ان الوحي مصدر المعرفة الاول وهو المصدر الصحيح والوحيد في معرفة عالم الغيب والشهادة[٣٩].

المطلب الثاني

العقل

العقل مايكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات، وعقل الشيء: ادركه على حقيقته[٤٠]. وبالعقل مُيز الانسان من بين الكائنات، وبه دخل ساحة الايمان، وفي ضوء تدبره ولج أبواب الكون يستكشف اسراره ويستنبط حكمه ويتلقف عبره، واصحابه هم المنتدبون الى النظر في آيات القدرة العلية يقول سبحانه ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[٤١] ولذلك عد القرآن الذين يجحدون نعمة العقل ويعملون على تعطيله عن وظيفته الاساسية شر الدواب يقول سبحانه ﴿ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾[٤٢] لان الانسان عن طريق العقل يدرك المعقولات كما ان العين تدرك المحسوسات[٤٣]. فالعقل جعله الله جل وعلا ضابطاً من ان تتقاذفه

---

[٣٤] الدلالة الظنية : هي مادلت على معنى يحتمل التأويل والاجتهاد.

أنظر اصول السرخسي : ١/٢٧٧-٢٧٩ وعلم اصول الفقه – عبدالوهاب خلاف / ٣٥.

[٣٥] البقرة – الآية : ٤٣.

[٣٦] صحيح مسلم : ٤/١٣٥-١٣٦.

[٣٧] البقرة – الآية : ٢٢٨.

[٣٨] تلخيص الحبير في تخريج احاديث الرافعي الكبير : ٢/١٦٩.

[٣٩] أنظر منهج التفكير الاسلامي : ٣١-٣٤.

[٤٠] معجم الالفاظ والاعلام القرآنية : ٢/٦٩.

[٤١] الروم – الآية : ٢٥.

[٤٢] الانفال – الآية : ٢٢.

[٤٣] أنظر معارج القدس في مدارج معرفة النفس : ٢٤

الاهواء لان الهوى (هو قيد للعقل وعائق في سبيل انطلاقه وتحرره، حين يكثر في الجماعة او في الامة اصحاب الهوى والعقول الضعيفة المقيدة فالمجتمع عرضة لاخطار التأخر والجمود والفساد)[٤٤] فالفارق كبير بين انسان يسعى على بينة من ربه وأخر يتبع هواه قال سبحانه ﴿فمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾[٤٥] ولم يقف القرآن عند هذا الحد بل مجد الحرية العقلية بقوله سبحانه ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[٤٦] كما دعا القرآن الى الاعتبار بما في الكون عن طريق الاستدلال العقلي لابل المعرفة به.[٤٧] وهذا مادل عليه قوله سبحانه ﴿إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون﴾[٤٨] وبذلك يحصل الانسان على الدرجات العالية والمكانة السامية التي خص الله بها أهل العلم ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[٤٩] هذا وأن القرآن قدجعل المجال مفتوحاً للانسان ليزداد علماً وهذا مايدفع للارتقاء والتطوير قال سبحانه ﴿وماأوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[٥٠] وقوله ﴿وقل رب زدني علماً﴾[٥١] ومما تقدم يتضح ان القرآن حينما أعطى للعقل هذه المكانة أراد أن يشد فعله بمظاهر الكون لادراك كنه قوانينها ليصل الى الحقائق فمن خلال دقة الصنعة وكمالها يستدل الانسان على الصانع الحكيم، ومما ينفعه ويضره يستدل على أوامر الله ونواهيه فيلتزم بطاعة الخالق العظيم[٥٢]

والمعرفة التي تأتي عن طريق العقل تمر بثلاث مراحل هي :-

---

[٤٤] مقام العقل عند العرب : ١٩.

[٤٥] محمد – الآية – ١٤.

[٤٦] الكهف – الآية – ٢٩.

[٤٧] انظر مقام العقل عند العرب : ٢٤ والتفكير فريضة اسلامية : ٨.

[٤٨] البقرة – الآية : ١٦٤.

[٤٩] المجادلة – الآية : ١١.

[٥٠] الاسراء – الآية : ٨٥

[٥١] طه – الآية : ٤١١.

[٥٢] انظر العقل وفهم القرآن : ١١٦-١١٧.

١. مرحلة الغريزة الفطرية التي أنعم الله بها على أكثر خلقه والتي لا تدرك الحواس لكنها تعرف بالعقل نفسه.

٢. مرحلة الاستدلال والنظر والتي عن طريقها يستدل العقل ليصل الى الحقيقة، سواء كان الدليل عياناً ظاهراً أم خبراً قاهراً، فالعقل هو المستدل والدليلان العيان والخبر يكونان علة ذلك، ومن هنا تتأكد فاعلية العقل وقدرته الى الوصول للمعرفة عن هذا الطريق، لما في الكون من أدلة تهدي لذلك.

٣. مرحلة المعرفة والتي يتفاوت البشر فيها نتيجة لعوامل متعددة منها الفهم والقدرة على الاستدلال لمعرفة النافع والضار والاستفادة من الاولى وتجنب الثانية، وهذا لا يحصل الا بعقل مفكر[٥٣]

ولذلك دعتنا الآيات البينات الى عمق التفكير بما يحيطنا قال سبحانه ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[٥٤] وقال سبحانه: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾[٥٥] ولم تكتف الآيات بعمق التفكير بل تعدت الى خطوة عقلية تعد أسمى من التفكير لانها حصيلته فدعت الى التفقه الذي يجعل الانسان أبعد نظراً واعمق ادراكاً واكثر وعياً وأتم استعداداً للتحاور والاقناع[٥٦]. ومن الآيات التي أشارت الى هذا قوله سبحانه ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾[٥٧] وقوله جل وعلا ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾[٥٨] وقوله ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول﴾[٥٩] وتأسيساً على هذه المكانة فأن العقل تجتمع له صور المدركات عن طريق الحس الظاهر او الباطن، أو عن طريق اخبار الاخرين التي تحكي ماتوصلوا اليه من معارف وبما يتخيله من صور تركيبية جديدة يبتكرها، وبما لديه من اصول فطرية تتألف منها موازينه وقوانينه الذاتية يستطيع ان يقوم باعمال فكرية كثيرة منها الاعمال الاتية :

---

[٥٣] أنظر المصدر نفسه : ٢٠٨-٢١٠ والاتجاه العقلي في التفسير : ٥٣.

[٥٤] النحل – الآية : ٤٤.

[٥٥] الانعام – الآية : ٥٠.

[٥٦] انظر مدخل الى موقف القرآن من العلم : ٨٤.

[٥٧] النساء – الآية : ٩٦.

[٥٨] الانعام – الآية : ٩٨.

[٥٩] هود – الآية : ٩١.

١. يستطيع العقل بنفسه أستنباط الجزئيات من الكليات وادراك الكليات من النظر في الجزئيات، وتعميم الاحكام عن طريق قوانينه الذاتية، أو عن طريق الاستقراء.

٢. يستطيع العقل قياس الاشباه والنظائر بعضها على بعض.

٣. يستطيع العقل أستنباط مقابلات المعاني وعكوسها، فيدرك النقيض وماهو داخل فيه متى عرف النقيض، ويدرك العكس متى عرف الاصل.

٤. يستطيع العقل ان يجري اعمال التحليل والتركيب والجمع والتفريق فيما لديه من المدركات.

٥. يستطيع العقل ان يدرك النسب بين المعاني والمدركات التي لديه.

٦. يستطيع العقل بنفسه ادراك الروابط بين المعلولات وعللها العقلية وبين المسببات واسبابها المنطقية، وأن يدرك آثار الاشياء ونتائجها المنطقية المستندة الى مبدأ العلة العقلية، أو السبب المنطقي[٦٠].

٧. يستطيع العقل ان يدرك من ملاحظته للتجارب المتكررة احكاماً عامة، ولو لم يكن بين السبب والظاهرة ارتباط عقلي.

٨. متى عرف العقل الشيء الناقص، فأنه يستطيع بنفسه ان ينطلق في سلم كمال هذا الشيء متعرفاً على درجاته درجة درجة ضمن قوانين التكامل.

٩. متى ادراك العقل الشيء الكامل او المرتقي في درجات الكمال فانه يستطيع بنفسه ان ينطلق فيتصور احتمالات نقصه دركة دركة حتى اسفلها.

١٠. متى أدرك العقل الجميل واحس بمواطن جماله استطاع ان ينطلق بنفسه فيتصور الاحتمالات التي تشوهه وتقبحه فتجعله غير جميل.

١١. يستطيع العقل بنفسه ان ينطلق في ادراك احتمالات المقادير فيزيد فيها وينقص الى مالانهاية. ويزيد مقادير الحرارة وينقصها، ويزيد مقادير الضغط وينقصها، وهكذا الى كل شيء خاضع لحساب المقادير.

---

[٦٠] ضوابط المعرفة : ١٣٢.

١٢.يستطيع العقل بنفسه ان ينطلق في ادراك احتمالات اختلاف الكيفيات الى مالانهاية له، فيغير فيها ويبدل بشكل لا حصر له، فلو أمسك عجينة من الشمع المطاوع وانطلق بطرح احتمالات تغيير كيفيتها لما وقفت تغييراته عند حد [61]

وهكذا يتضح لنا كيف يقوم العقل باعماله التي لا حصر لها ضمن المواد الاولى التي تصل اليه عن طريق الحس الظاهر او الباطن، او التي تصل اليه عن طريق اخبار الآخرين، زيادة على مالديه من قوانين ذاتية وقدرة على التخيل، ولكن ينبغي ان نعلم انه ليس كل مايدركه الفكر هو من قبيل اليقين بل ينقسم الى اقسام :

الحق بيقين، الظن الراجح، الشك، الباطل بيقين.

وتصنف هذه المعارف كل حسب مرتبته التي يستحقها على وفق الضوابط والقوانين الفطرية والمكتسبة[62]. ولهذا نجد ان القرآن الكريم قد خاطب العقل بمستويات متعددة وكأنه أسند لكل مرتبة مايناسبها وعن طريقها يمكن ان تصنف العقول كالآتي :

١.عقل وازع : خاطبه رب العالمين ليستجيش فيه الاستجابة والتسليم قال سبحانه ﴿ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون﴾[63].

٢.عقل مدرك يخاطبه الخالق ليستجيش فيه الفهم والوعي قال سبحانه ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولو الالباب﴾[64]

---

[61] انظر المصدر نفسه : ١٣٢ -١٣٣.

[62] أنظر المصدر نفسه : ١٣٣-١٣٤.

[63] البقرة – الآية : ١٦٤.

[64] آل عمران – الآية : ٧.

٣. عقل يندبه الى الفكر والرأي ويعبر عنه بالنظر والتدبر والاعتبار قال سبحانه ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾[٦٥].

٤. عقل يمن عليه بالحكمة والرشد قال سبحانه ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الالباب﴾[٦٦].

وفي ضوء هذه المعاني السامية نرى التدرج واضحاً من خلال هدف المخاطبة فتارة وصف فارق به الانسان سائر البهائم وتميز عنها ثم يبلغ به التميز فيرى جواز الجائزات واستحالة المستحيلات وادراك البديهيات ثم تحنكه التجارب فتجعله يبلغ الحكمة[٦٧]. وهكذا يضع القرآن أمام العقل مفاتيح الكون ويشجعه على ارتياد الافاق وكشف استار المعرفة بتسخير كل شيء يساعد على ذلك، فان أدى العقل دوره بالشكل المرسوم له فصاحبه يكون أمام خيارين :

١. إما ان يأخذ بثمرة تفكيره التي أستخلصها وعمل بمقتضاها فيكون متبعاً للحق.

٢. في حالة رفض حصيلة تفكيره نتيجة لهوى نفس او تأثير شهوة فيكون بذلك قد فضل الضلال على الهدى فخسر التجارة وابطل دور جوهرته الثمينة[٦٨] لان العقل (مناط انسانيته الناطقة، اذا عطل بالجهل او الغفلة والعمى، مسخت بشرية الادمي فهبط الى دونية الدواب العجماء)[٦٩] قال سبحانه ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾[٧٠]

وهذا الموقف يأباه العقل السليم، ولا يرضى به إلا فاقد عقل او متبع هوى او مجانب رشد او راضٍ بضياع او واقف موقف عجز.

---

[٦٥] الانعام – الآية : ٥٠.

[٦٦] البقرة – الآية : ٢٦٩.

[٦٧] أنظر منهج التفكير الاسلامي : ١٥.

[٦٨] انظر المنهج العلمي للاعتقاد : ٦٣.

[٦٩] الشخصية الاسلامية دراسة قرآنية : ١٤٥.

[٧٠] الانفال – الآية : ٢٢.

المطلب الثالث

القلب

يتضح بجلاء ان القرآن الكريم ميز بين العقل والقلب، فاذا كان العقل يستمد معلوماته من الحواس فيمحص مايصله منها ثم يعرضه على القلب ليصدر قراره النهائي لانه هو صاحب القبول او الرفض، فالعقل مهمته اسداء النصائح وتقديم الاستشارات والقلب يمسك بزمام القيادة فهو يخضع مايقدم له لأطاره العام فتتفاعل ضمنه القناعات وتتشذب حتى تستقر وفق إطاره ولاسيما اذا كان ذلك الاطار عقيدة محكمة البناء فتضفي على قراراته القوة والبهاء[٧١]. وليس المراد من القلب الجسم الصنوبري بل هو (الروح الانساني المتحمل لأمانة الله المتحلي بالمعرفة المركوز فيه العلم بالفطرة الناطق بالتوحيد)[٧٢] ومن هنا يعد الايمان القلبي قاعدة قوية تميز الايمان الحقيقي المستقر الذي لا يتزعزع والذي أشار اليه القرآن بقوله سبحانه ﴿قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾[٧٣] فميز النص بين ايمان ثابت تجذر في القلب فدفعته حلاوة الايمان ان يجعل هذا الاحساس الداخلي ممثلا في واقعه ليتطابق الباطن والظاهر وهذا ماسيدفعه الى الانطلاق الذاتي لكل مكرمة وخلق حميد[٧٤]، وبين ايمان ردده لسان من غير اتصال قلبي فهذا ايمان لا يقيم له القرآن وزناً لان افعال صاحبه لا ترتقي الى مستوى اقواله ﴿ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون﴾[٧٥] فان الالفاظ والمظاهر لا تلبث ان تزول هي وصاحبها كما زال الكثيرون ممن ارتدوا عن الحق، ويشير القرآن الى أن القلب لابد ان يكون ولاؤه لمنهج الله، إما اذا اعطى ولاءه لاكثر من منهج فقد وقع في النفاق بل الضياع قال جل وعلا ﴿ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾[٧٦] لانه والحالة هذه يدلل على تلافي في نقص التشريع الالهي بولائه لغيره[٧٧]

---

[٧١] أنظر المنهج العلمي للاعتقاد : ٨٥-٨٦.

[٧٢] معارج القدس في مدارج معرفة النفس : ٢٣.

[٧٣] الحجرات - الآية : ١٤.

[٧٤] انظر في ظلال القرآن : ٧/٥٤١.

[٧٥] الصف - الآية : ٢.

[٧٦] الاحزاب - الآية : ٤.

[٧٧] انظر المنهج العلمي للاعتقاد : ٩٢.

ومن هنا فان الايمان القلبي يشكل قاعدة ميزت المنهج الالهي عن غيره لانه يبني من خلال هذا الايمان رقابة ذاتية عند من يحمله صدقا لانه يشعر برقابة الله له، أما اذا تنازعت القلب مناهج متعددة واستولت عليه أحاسيس فاسدة فان القلب حينذاك لا يقبل دلالة عقل بل يبقى سادراً في غيه ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾[٧٨] مما يجعل مثل هذه القلوب قاسية ﴿ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة او أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾[٧٩] هذه القسوة تطمس بصر القلب ﴿فأنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[٨٠] عمى يصده عن الحقيقة ويعرض به عما يصله عن طريق العقل فتبدد جهود الحواس وتتلاشى في خضم اوهامه، فلا ينتفع بالحقيقة المسداة له بلا عناء ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها﴾[٨١] وقد عللوا ذلك بان قلوبهم مغلقة لا يصل اليها نور ولا تهتدي بحقيقة تسوقها الآيات البينات فاستحقوا بذلك اللعنة ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾[٨٢] فاذا أُقفل القلب وغلف أصبح بعيداً عن ان يستقبل هدى الخالق ولكنه جل وعلا ان ترك القلب في تحصيل اختياراته، فانه لم يتركه يتصرف بمعتقده الفاسد ولاسيما في امور اناس ﴿ان الله يحول بين المرء وقلبه﴾[٨٣] وبالمقابل فان الله جلت قدرته يهدي القلوب عندما تتوجه بصدق لمنهجه وتلقي هداه ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾[٨٤] ولم يقف عند هذا الحد بل ان القلب اذا آمن بمنهج الله فانه يحتاج الى رقابة دائمة واصلاح لكل خلل يحدث لانه – أي القلب – واسع الافاق بعيد المدى مما يضعه تحت رقابة وامتحان دائم يقول سبحانه ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم

---

[٧٨] الاعراف – الآية : ١٧٩.

[٧٩] البقرة – الآية : ٧٤.

[٨٠] الحج – الآية : ٤٦.

[٨١] محمد – الآية : ١٤.

[٨٢] البقرة – الآية : ١٥.

[٨٣] الانفال – الآية : ٢٤.

[٨٤] مريم – الآية : ٧٧.

بذات الصدور﴾[85] فالمؤمن عندما تستقر هذه المبادئ في قلبه فلا غرابة في صفاء سلوكه ونقاء سريرته لانه يؤمن بحقيقة قوله سبحانه ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[86] فالقلوب المؤمنة تتلقف الحقيقة والمعرفة لانها ضالتها فالصور التي تنقلها الحواس يستقبلها العقل فيؤدي دوره فيها وبتوالي هذه المشاهد وكثرة التجارب تحصل ارتباطات فتتكون قناعات يصل القلب بموجبها الى المعرفة[87]. وقد بين القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون﴾[88] فالقلب كالمرآة مستعد لان تتجلى فيه الحقائق كما تظهر الصورة على المرآة ولا سيما اذا كان مؤمناً عاملا بما علم، وتحجب عنه المعرفة اذا كان فيه نقص في ذاته او تراكمت المعاصي عليه او جانب جهة الحقيقة المطلوبة او كان متصفاً بالجهل او هناك مانع يحجزه لسبب ما.

المطلب الرابع

الحواس

تعد الحواس منافذ يطل منها الانسان على العالم، بوساطتها يدرك العقل مايصل اليه منها ولاسيما نتيجة تكرار التجربة، وقد أعطى القرآن الكريم هذه الحواس أهمية كبيرة سواء كان ذلك ببيان عملها او فائدتها او شهادتها على صاحبها كما ندد بمن لا يستخدم هذه الالات لما خلقت له بصورته الصحيحة لان حسن استعمالها يقود الى المعرفة الحقيقية وفيما يأتي بيان دور كل منها :

١ – السمع

يؤدي جهاز السمع دوراً مهماً في حياة الانسان، وفقدانه يؤثر تأثيراً واضحاً في سيرته وتفاعله مع الآخرين، لان هذه الحاسة لا يمكن ان تعوض بغيرها ولذلك يحدث الخلل الذي يتعذر تلافيه لان (تعلم النطق يتم عن طريق السمع بالدرجة الاولى، واذا ولد الانسان وهو أصم، فإنه يصعب عليه الانسجام مع المحيط الخارجي

---

[85] آل عمران – الآية : ١٥٤.

[86] الشعراء – الآية : ٨٨-٨٩.

[87] انظر المعرفة في منهج القرآن الكريم : ١٤٢-١٤٣.

[88] النحل – الآية : ٧٨.

او التفاهم معه ويحدث له قصور شديد، بمعنى ان هذا الجهاز هو الذي ينمي مدركات الانسان وذهنه ووعيه)[٨٩] ومن هذا المنطلق فان هذا الجهاز الحيوي يعد من أجود الوسائل لتلقي المعرفة، ومما يؤكد هذا ورود الفعل سمع ومشتقاته في مئة وخمسة وثمانين موضعا في القرآن الكريم [٩٠]. وهذا الاهتمام يوضح التعامل مع هذه الحاسة وكيفية الاستفادة منها في تلقي المعرفة لانها وسيلة ميسورة للكبير والصغير، المتعلم والامي البصير والاعمى ويعد هذا من أكبر الفضائل لهذا الجهاز[٩١]. ولعل سماع النفر من الجن القرآن الكريم من الرسول ﷺ وايمانهم به ودعوتهم لقومهم انما جاء عبر حاسة السمع قال سبحانه ﴿واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين. قالوا ياقومنا انا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم﴾[٩٢] وهؤلاء لو لم ينتفعوا بما سمعوه لفاتهم الايمان ولخسروا الدارين لانهم لم يتخذوها وسيلة للنجاة و لم يحافظوا على أمانتها[٩٣]. ولذلك فان الاستجابات الايجابية لسبيل الحق بالتفاعل مع المسموع انما يدلل على رغبة المستمع في الانتفاع من ثمرة الاستماع وهذا لا يتحقق إلا لمن يستجيب بوعي وذكاء ولذلك لا يعد غير المتفاعل مع المسموع مستمعاً وصدق الله القائل ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾[٩٤] وهذا الحصر في الآية يمثل منهج القرآن في استخدام هذه الوسيلة فإجادة الاستماع بوعي مرهف وتبلور موقف يناسبه هو المطلوب وخلافه لا يعد سماعاً بل هوى[٩٥]. ولذلك فالذي يرفض سماع الحق كالذي يعطل جهاز سمعه بأي وسيلة سواء باغلاقها او بسماع وعدم استجابة، وذلك سيان لانهم يدللون بفعلهم هذا بشلل تفكيرهم وحكمهم على المسموع بقناعاتهم التي لا يحكمها منطق ولا يؤيدها علم ولا تدعمها خبرة بقول سبحانه ﴿ان تدعوهم ولا

---

[٨٩] الطب محراب للايمان : ٢٠٢-٢٠٣.

[٩٠] أنظر معجم الالفاظ والاعلام القرآنية : ١/٢٨٧-٢٧٩.

[٩١] أنظر المنهج العلمي للاعتقاد : ٢٩.

[٩٢] الاحقاف – الآية : ٢٩-٣١.

[٩٣] أنظر تهذيب سيرة إبن هشام : ١/١٠.

[٩٤] الانعام – الآية : ٣٦.

[٩٥] أنظر المنهج العلمي للاعتقاد : ٣١.

يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما أستجابوا لكم﴾[٩٦] فالنص الكريم يرشد الى أن نمهد لسماع كلمة الحق مايساعد على سماعها ويدفع المستمع برغبة واختيار باستخدام وسائل التبليغ جميعها كالاسلوب الحكيم والقول الحسن والادب والحوار وغيرها[٩٧] .

وقد شبه القرآن الكريم الذين لا يلبون نداء الحق ويعرضون عنه أحد ثلاثة : ميت أو أصم أو أعمى وتشبيه المستمع بهؤلاء وتنزيله منزلتهم لانهم يمتلكون الوسيلة لكنهم لم يتصرفوا بها كما ينبغي فحسن تشبيههم بذلك، وأكد القرآن ان الذين يستعمون هم الذين أنار الايمان عقولهم وفتح للحق آذانهم فأصاخوا السمع بوعي وتلقفوا النداء بشوق، ومن هذا نفهم الفارق الكبير بين المستجيب والرافض لنداء الحق والنص يؤكد غرضين :

الاول : يجب ان يكون الاستماع بلا موقف مسبق يؤثر على الحكم العقلي.

الثاني : أن نقبل حصيلة الاستماع الواعي تعبيراً عن نزولنا للحق والتزاماً بالمنطق[٩٨] .

وقد مدح الله جلت قدرته الذين يمحصون الاقوال ولا يكتفون بمجرد السماع بل يسعون الى تلقف الحسن ونبذ الخبيث سعياً منهم لرعاية مصالحهم لان خلاف هذا العمل يؤدي بالنتيجة الى علاقة غير محمودة قال سبحانه ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب﴾[٩٩] فالآية تشير الى ان الاتباع الحسن يولد الهداية ويصف اصحابه بانهم اصحاب العقول الراجحة، ومن كانت هذه صفته تحصل له الذكرى بمواعظ الله تعالى ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد﴾[١٠٠] قلب يعي الامور سليم من الانحراف بعيد عن الاهواء يمتلك سمعاً لا تعكره شائبة حارس أمين على مايتلقاه ويكون قد أعان العقل على عملية التفاعل مع المسموع على أتم وجه وأحسن صورة، فالسمع على هذه

---

[٩٦] فاطر – الآية ١٤.

[٩٧] انظر المنهج العلمي للاعتقاد : ٣٢-٣٣.

[٩٨] انظر المنهج العلمي للاعتقاد : ٣٤.

[٩٩] الزمر – الآية : ١٨.

[١٠٠] ق – الآية : ٣٧.

الشاكلة تتوارد عليه الاصوات المختلفة فيشعر بصفاتها ودرجاتها ومقاديرها فتتولد لديه خبرات سمعية، فيكتسب عن طريق ذلك معارفه السمعية المتنوعة[١٠١]

٢- البصر

نعمة البصر من النعم التي تستوجب الشكر الذي يحفظ هذه الامانة وينتفع بها في الاهتداء كي يبرئ الانسان ذمته امام المنعم العظيم، ولذا فقد ذكرها الله عز وجل بقوله ﴿ألم نجعل له عينين﴾[١٠٢] ونستشف من الاية اهمية هذه الحاسة التي لا يجوز استخدامها في معصية المنعم بها، بل ان ماتراه من صنع الخالق العظيم يجب ان يكون عامل يقين بزيادة الايمان واستخلاص العبر والتوصل الى الحقيقة عن طريق التلقي الصادق والملتزم، وبذلك نكون قد اعطينا هذه الحاسة استحقاقها لما كلفت به، أما من يُعدَمُ الاسترشاد بها ويُعطل مهامها فينضوي تحت قوله سبحانه ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾[١٠٣] فعلى الرغم من امتلاكهم اياها إلا انهم حولوها بتعسفهم في استعمالها فقابلوا النعمة بنقمة، ولذلك نجد القرآن العظيم يقارن بين ضدين فيقول ﴿وما يستوي الاعمى والبصير﴾[١٠٤] فشتان بين تمكن وعدم تمكن، واظهار البصير بهذه المنزلة العظيمة التي تثير في النفوس الاهتمام، وتوجيه هذه الحاسة نحو المحسوس المشاهد ولاسيما ما يحيط بنا لكي نتمتع بروائع الصنع وعظمة الابداع بتركيز ونظر حرص شديد لبلوغ المرام وهذا ما يزيدنا إيماناً بالصانع العظيم، فاذا ما أخذنا العبرة على هذه الشاكلة من القريب منا فسوف نندفع حتماً الى البعيد نستطلع امره ونستكشف اسراره بفضل ما أتانا الله من بصر وبصيرة وعقل، والمتتبع يرى ان القرآن الكريم قد بين أنواعاً من درجات هذا النظر تتوافق والمستويات العقلية وقدمها بمنهجية علمية شاملة وفيما يأتي بيانها :-

١ .دعانا القرآن الكريم أن ننظر الى المواد التي خلقنا منها وندرسها فقال سبحانه ﴿فلينظر الانسان مم خُلق﴾[١٠٥] وهذا ما يدفع المتعلم للتعرف على ذلك، لابل لم يترك

---

[١٠١] انظر ضوابط المعرفة واصول الاستدلال والمناظرة : ١٢٧.

[١٠٢] البلد - الآية : ٨.

[١٠٣] الاعراف - الآية : ١٧٩.

[١٠٤] فاطر - الآية : ١٩.

[١٠٥] الطارق - الآية : ٥.

القرآن الانسان حائراً فقد فتح له الباب ليلج هذا المضمار فقال سبحانه ﴿خلق من ماء دافق﴾[١٠٦] واضاف له معرفة اخرى بقوله ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين﴾[١٠٧]. ومن هنا يتبين ان الانسان خلق من شيئين هما : الماء والطين واليهما يتوجه الانسان بالدراسة والتحليل وما يتبعهما من عناصر اخرى بذل العلماء جهوداً مضنية في معرفة خواصها، فالله جل وعلا قد أعطى هؤلاء قدرة التحليل لهذه المركبات وتركيبها وتبسيط معقدها وصولا الى الحقيقة المبتغاة في هذا الجانب [١٠٨]

٢. لم يكتف القرآن بالنظر الى المادة بل دفع الانسان الى التعرف على كيفية خلق الاشياء وهذا ما يستلزم طاقة عقلية أقوى وأعمق مما يقتضيه النظر لمعرفة مم خلقت الاشياء ؟ فقال سبحانه وتعالى ﴿أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت﴾[١٠٩] فالمتأمل في الآية يصل الى ان المادة التي خلقت منها الإبل لم تكن جزافاً من غير تقدير بل ان الخالق العظيم خلق هذا الحيوان بهذه الكيفية بما يتناسب ومقتضيات البيئة التي يعيش والمهمة التي يتحملها ولذلك خلقه بالصورة التي نراها ظاهراً وزوده بأجهزة داخلية يقتضيها اسلوب عمله. فكانت الارجل الطويلة والعنق الطويل والسنام والخف وأكياس تخزين الماء وغيرها تنطق بتقدير خالق عظيم لتصب في المهمة وصولا للغرض المنشود[١١٠].

٣. واذا وجه القرآن النظر الى الكيفية فأنه يرتقي بنظر أعمق ونظرة أدق فيدعو الانسان الى النظر في كيفية بدء الخلق وأعني خلق المادة نفسها أولاً، وهذا ما لم يصل اليه أحد الى الآن، وهذا الامر يتطلب عقلية أقوى ونظراً أعمق وطاقة أوسع مما يبذله في التعرف على الكيفية المشار اليها سلفاً، والعلم رغم تقدمه لم يصل الى

---

[١٠٦] الطارق – الآية : ٦.

[١٠٧] السجدة – الآية : ٧.

[١٠٨] انظر مع الله في السماء : ٢٠٧-٢٠٨.

[١٠٩] الغاشية – الآيتان : ١٧و١٨.

[١١٠] انظر المعرفة في منهج القرآن الكريم : ١٧٨-١٧٩ والمعرفة عند مفكري المسلمين : ٥٤-٥٥.

الكشف عن اصل الوجود، والدراسات التي ظهرت ما هي الا فروض تفتقر الى الدليل، ولا يزال هذا الامر سراً من أسرار الخالق لم يكشف النقاب عنه[١١١]

٤. ولأجل التعرف على الأطوار في خلق الاشياء والالمام بمستلزمات كل طور وسننه فقد وجه القرآن النظر لذلك ليعزز المدى المعرفي وصولا الى الحقيقة، ففي أطوار الأجنة جاء قوله سبحانه ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[١١٢] وفي أطوار عمر الانسان قال سبحانه ﴿ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾[١١٣] وفي أطوار النبات جاء قوله تعالى ﴿ألم ترَ ان الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً الوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الالباب﴾[١١٤] وفي مراحل بعض الظواهر الجوية قال سبحانه ﴿ألم ترى ان الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار﴾[١١٥].

٥. إن إتقان صنع الكائنات معيار مثالي في فطرة الانسان الذي يسعى الى الكمال ولذلك فإنه عندما ينظر الى دقة الصنعة تتجسد أمامه عظمة الصانع لابل تقوده النظرة المتأتية للتعلم بأوسع معانيه ولذلك وجه القرآن انظارنا الى هذه الدقة وأرشدنا اليها بقوله سبحانه ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾[١١٦] وصفة الاتقان تظهر في أمرين :-

---

[١١١] نظر المصدر نفسه : ١٨٠.

[١١٢] لمؤمنون – الآيات : ١٢-١٤.

[١١٣] لحج – الآية : ٥.

[١١٤] لزمر – الآية : ٢١.

[١١٥] لنور – الآية : ٤٣.

[١١٦] نمل – الآية : ٨٨.

الاول – دقة التقدير وتتمثل في قولـه تعـالى ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾[١١٧] ونستشف من التقدير في الآية تبيين كمية الشيء وتمامـه في الصنعـة، فقـدر سبحانه لكل كائن او جماد ما يستلزمه ضرورة لكيانه بحيث لو تغيرت نسب التقديـر لخـرج الشيء عن ماهيته، كما ركب الاعضاء والاجهزة والحواس بما يلائم وظيفتها وقـدر لها السنن التي تحفظ لها نوعها فلا تنبت نواة التمر إلا النخل قال سبحانه ﴿قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾[١١٨] ووجهه لوظيفته وزوده بفطرة الاهتداء التي تقـوده الى مهمته المرسومة بدليل ﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[١١٩] فالآية تشـير الى ان كـل كائن بعد خلقه ينصرف لأسلوب معيشته وأداء دوره[١٢٠].

الثاني – حقائق علمية تختص بأداء الاشياء لدورها في الحياة، وهذا ما يظهـر في مسارات الكواكب في مداراتها بـلا اصطـدام وبانتظـام وسـرعة متقنـة وتنسيق مما يترتب على ذلك الليل والنهار والفصول والشروق والغروب قال سبحانه ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾[١٢١] ولاشك في ان هذا النظام شاهدنا على دقة اتقان صنع الكون ووثاقة بنيتـه وانقيـاده بانضبـاط لانـه محكوم بسنن تجعله وحدة مترابطة الاجزاء[١٢٢] وقد عبر القـرآن الكريـم عـن وثاقـة البنيـة بقولـه ﴿وبنينا فوقكم سبعا شدادا﴾[١٢٣] وعـن الانقيـاد بقولـه ﴿ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا أتينا طائعين﴾[١٢٤] وهكـذا نجـد ان حاسة البصر تتوارد عليها الخبرات البصرية وبها يكتسـب الانسـان معـارف كثـيرة تتعلق بالالوان والابعاد والحجوم والمساحات وغيرها [١٢٥].

---

[١١٧] الفرقان – الآية : ٢.

[١١٨] الطلاق – الآية : ٣.

[١١٩] طه – الآية : ٥٠.

[١٢٠] انظر المعرفة في منهج القرآن الكريم: ١٨١–١٨٢.

[١٢١] يونس – الآية : ٥.

[١٢٢] انظر المعرفة في منهج القرآن الكريم : ١٨٤.

[١٢٣] النبأ – الآية : ١٢.

[١٢٤] فصلت – الآية : ١١.

[١٢٥] انظر ضوابط المعرفة واصول الاستدلال والمناظرة : ١٢٧.

٣- الشم

عن طريق هذه الحاسة نشم الروائح المختلفة وصفاتها ودرجاتها ومقاديرها وآثارها في النفس، وتتوارد على هذه الحاسة الخبرات المتعددة في هذا المجال، وبها يكتسب الانسان معارف مختلفة تتعلق بالروائح، فهذا يعقوب عليه السلام قد شم رائحة قميص يوسف من بُعد وقد صور القرآن ذلك بقوله ﴿ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا ان تفندون﴾[١٢٦] وقد تحقق ليعقوب ما توقع، وجاء البشير بقميص يوسف فلما ألقاه على وجهه ارتد بصيرا [١٢٧]. ويرى العلماء (ان عملية الشم هي اشبه ما تكون بعملية كيمياوية)[١٢٨] وعليه فتعد هذه الحاسة نافذة مدهشة ودقيقة تصل الانسان بالعالم الخارجي فعن طريقها تثار شهية الطعام وتحرك الدوافع الجنسية ولها تأثيرات روحية مهمة ولهذا كان استخدام الطيب سنة يوم الجمعة كما لها تأثير بأفعال الذاكرة[١٢٩]. وبتقدم العلم اصبح لهذه الحاسة اهمية كبيرة في كشف بعض الجرائم باستخدام الكلاب البوليسية.

٤- الذوق

بواسطة هذه الحاسة تعرف أذواق الطعوم الموافقة والمنافية، وهي قوة مرتبة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك الطعوم المتحللة من الاجرام المماسة لها المخالطة للرطوبة العذبة التي فيه مخالطة محيلة، فإنها تأخذ طعم ذي الطعم وتستحيل اليه وربما تحيله اليها، وكلما اتصل الطعم بذلك العصب أدركه العصب، وهي التي تتلو الشم وتتصل هذه القوة بالجنين بعد قوة الشم فنظر فيه عند الولادة وتتصل هذه القوة بالجنين بعد قوة الشم فتظهر فيه عند الولادة فيتحرك الجنين ويحرك لسانه ويلعق نفسه بنفسه[١٣٠]. ويتحسس اللسان بستة انواع من الطعوم هي : الحلو والمر والمالح والحامض والمعدني والقلوي، وهناك اشتقاقات اخرى من هذه الاساسيات،

---

[١٢٦] يوسف - الآية : ٩٤.

[١٢٧] انظر في ضلال القرآن : ٥/٤٦.

[١٢٨] الطب محراب للايمان : ٢٢٥.

[١٢٩] انظر المصدر نفسه : ٢٢٦-٢٢٧.

[١٣٠] معارج القدس في مدارج معرفة النفس : ٤٨-٤٩.

ولا يخفى ان بالتقاء الطعم والرائحة تكون النكهة[131]، وتبلغ (دقة التأثير في الذوق ان اللسان يحس بالطعم المر ولو بلغ تركيزه على اللسان أربعة أجزاء من مائة ألف)[132] وهكذا تتجسد امامنا قيمة هذه الحاسة وما تؤديه من مضغ وبلع وذوق وتصويت ولهذا لفت القرآن الكريم أنظارنا الى هذه الحاسة فقال سبحانه ﴿ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين﴾[133].

٥- الحس

من الحواس المهمة وهي قوة مبثوثة على بشرة الكائن الحي وعروقه، وبالعصب يدرك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والصلابة والرخاوة واللين والخشونة والخفة والثقل[134]. ولما كان الجلد مركز الاحساس في الانسان صب الله العذاب الاخروي عليه وصور ذلك بقوله جل وعلا ﴿ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزاً حكيماً﴾[135] فكلما بلى جلد الانسان تجدد له آخر لكي يعيش في عذاب دائم وألم مستمر[136].

هذا (وأن شدة الاحساس وضعفه تتوزع في الجسم حسب الوظيفة التي يقوم بها العضو فهي في الشفتين والاعضاء التناسلية أشد، وفي قرنية العين شديدة الحساسية وللألم بوجه خاص... اما أخمص القدم فهو ضعيف الاحساس، بينما أنامل اليدين تمتاز بمنتهى الحساسية لانها مراكز تحسس الموجودات، وهكذا يشعر الانسان بالبرد والحر حيث تمثل فيه أجراس الانذار يقي نفسه من البرد الحر، ولولا هذه الخاصية لهلك الانسان من البرد والحر، ولكنه مع هذا متزن في حرارته مهما تقلبت الظروف الجوية التي تحيط به)[137] وهكذا يظهر لنا التناسق الرائع بين عمل الحواس مع المحيط الخارجي بشكل يثير الاعجاب، فتعامل العين الأذن يقوم على قواعد فيزيائية، أما

---

[131] انظر الطب محراب للايمان : ٢٢٧.

[132] المصدر نفسه : ٢٢٩.

[133] البلد - الآيتان : ٨و٩.

[134] معارج القدس في مدارج معرفة النفس : ٤٧ وأنظر العقائد النسفية : ٣٢.

[135] النساء - الآية : ٥٦.

[136] انظر التفسير القرآني للقرآن : ٥/٨١٨.

[137] الطب محراب للايمان :٢٣٣.

الشم والذوق فتعاملها مع المستقبلات الكيمياوية، وهذا ما يجعل استجابات الكائن الحي متنوعة[138]. وازاء هذه الآلاء العظيمة فان العقل ليركع وان القلب ليخشع وان العين لتدمع وان الأذن لتسمع وان اللسان ليردد قوله سبحانه ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[139].

المبحث الثالث

خطوات المنهج المعرفي

تعد خطوات أي منهج ضرورة يحقق بها اهدافه التي يسعى اليها، والمنهج المعرفي قد خطى خطوات امتدت باتجاهات ثلاثة : السببية وحركة التأريخ والبحث التجريبي والتي سندرسها في المطالب الآتية :-

المطلب الاول

السببية

ان المتأمل للآيات القرآنية وهي تعرض الارتباطات والعلاقات بين الظاهر الكونية في الوجود يصل بالنتيجة الى أنه مامن شئ من الاشياء إلا وهو مسبب من ناحية وسبب من ناحية اخرى، ومما يؤكد هذا توالد الناس وتكاثرهم، وكلما ركزنا الفكر وأنعمنا النظر في الاسباب نجدها تؤول في النهاية الى سبب رئيسي هو واجب الوجود، وهو الله جل وعلا، وهذا ما يسمى بالخاصية السببية في الكون[140].

وقد أعتمد القرآن السببية لأجل ان يرتقي بالعقل من النظرة السطحية العابرة الى نظرة مركزة تستشرف الظاهر فتربط بين الاسباب والمسببات، لاجل الوصول الى وحدانية الخالق والوقوف اعلى الابداع الكوني إذ بدون القدرة على الربط بين

---

[138] انظر المصدر نفسه : ٢٣٤.

[139] الرحمن – الآيات :

١٣و١٦و١٨و٢١و٢٣و٢٥و٢٨و٣٠و٣٢و٣٤و٣٦و٣٨و٤٠و٤٢و٤٥و٤٧و٤٩و٥١و٥٣و٥٥و٥٧و٥٩و٦١و٦٣و٦٥و٦٧و٦٩و٧١.

[140] انظر كبرى اليقينات الكونية ، ٣٠٥-٣٠٦.

الاسباب والمسببات يفقد العقل المؤمن أبرز طرائق الدلالة على القناعة، وبفقدانها يكون عاجزاً عن الوصول الى الحقيقة المبتغاة[١٤١]. ولما للسببية من اهمية في عالم الشهادة وتعايش الانسان معها فقد بنى جلت قدرته اخباراته الغيبية على النظام نفسه كي يتصورها الانسان كما ألفها، فأخبر عز وجل بمراقبة الملكين لتصرفاتنا، واوضح مهمة الزبانية بتعذيب الكافرين ولعل قوله سبحانه ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾[١٤٢] يوضح السببية بجلاء، فمما لاشك فيه ان الله جلت قدرته لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء، إذن فما قيمة شهادة أعضاء الانسان له أو عليه تجاه علم الله ؟.

إن القيمة تكمن في أن لا سبيل للانسان في ذلك الموقف الرهيب من ان يستعمل ما اعتاد من تصرفات كالتحايل والتزوير واخفاء الحقيقة فالانسان ستكشفه اعضاؤه، زيادة على تجلي الخالق على ما يخفي وما يعلن، وانطلاقاً من هذا فعلى المسلم ان يؤمن إيماناً لا ارتياب فيه أن سبب الاسباب هو الله جل وعلا، وهذا ما أرشدنا اليه قوله سبحانه ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[١٤٣] ومن هذا الطريق تتكشف للمتأمل الحقيقة ويثبت العلم باليقين ويتحقق الاستنتاج بالادلة، لان الشيء لا يوجد نفسه من العدم، ولذلك يعد هذا معياراً عقلياً لأدراك حقائق الاشياء، ولأجل الوقوف على العلة والمعلول في القرآن الكريم لاستخلاص ثمرة تطلعنا فهذه بعض الآيات تبين بجلاء خاصة السببية قال سبحانه ﴿أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[١٤٤] وقوله جل وعلا ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾[١٤٥] وقوله عز وجل ﴿أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم

---

[١٤١] انظر حول اعادة تشكيل العقل المسلم : ٣١.

[١٤٢] يس – الآية : ٦٥.

[١٤٣] يس – الآية : ٨٢.

[١٤٤] الواقعة – الآيتان : ٦٣و٦٤.

[١٤٥] الواقعة – الآيتان : ٦٨و٦٩.

أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾[١٤٦] ثم يسأل الله تقدس أسمه ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾[١٤٧] وبهذا السؤال يضع الجاحدين امام خيارين هما :-

١. إن خلقهم من غير شئ يعد مستحيلا عقلاً وواقعاً ومشاهدة.

٢. هم الذين خلقوا أنفسهم، وخلقوا السموات والارض ودبروا كل شئ وهذا مالم يقل به مخلوق، وعليه فاذا كان هذان الغرضان لا يتفقان وحكم المنطق والفطر السليمة حيث لا برهان يدعمها ولا حجة تسعفها لم تبق أمامنا الا الحقيقة التي يقررها القرآن المجيد وهي: انهم جميعاً مخلوقون لخالق عظيم[١٤٨].

واذا كان ادراك الحقيقة بهذه الطريقة العقلانية التي قررها القرآن فلا وزن لما يقوله الماديون من انه وضع اكتسبه العقل من التجربة، ولكننا نقول لهؤلاء هل ان الطفل عنده تجربة عندما يسأل من الذي خلقني ؟ من خلق الشمس ؟ من خلق الطير؟ من حفر البئر ؟ لو لم يدرك السببية لما سأل وبذلك يتوافق احساسه مع تأمل الباحثين من ان تلك الكائنات لم تخلق نفسها، وانما وراء وجودها فاعل حكيم [١٤٩].

ولابد من الاشارة هنا الى قضية هامة هي تعطيل الاسباب في بعض القضايا بالاثبات طلاقة القدرة الآلهية ولاختيار المؤمنين بعدما اعتادوا للوصول الى الحقيقة عن طريق ربط الاسباب بالمسببات فلا قنوط، لانه هو الذي يخلق الاسباب ويوجد المسببات، ومن هذا المنطلق فالمؤمن لا ييأس ولا يهز نفسه رعب لانه يلتجأ الى خالق الاسباب والمسببات فتطمئن نفسه[١٥٠]، واذا كان المثال يوضح المقال فان القدرة الآلهية بإمكانها ان تحفظ ابراهيم عندما اراد الكافرون احراقه بأي صورة كانت بإخفائه او بعدم تمكنهم من مسكه او بإنزال مطر يطفئ النار، ولكن لم يحدث مثل هذا لانه لو حدث لقالوا لو قبضنا عليه لأحرقناه، ولو لم ينزل المطر فيطفئ النار لاحترق بنارنا المتأججة، وبهذا يظل تأثير الآلهية المزيفة مسيطراً على عقولهم، ولكن الله مكنهم من ابراهيم عليه السلام فرموه في النار وهنا تأتي القدرة الآلهية لتعطيل خاصية احراق

---

[١٤٦] الواقعة – الآيتان : ٧١و٧٢.

[١٤٧] الطور – الآية : ٣٥.

[١٤٨] انظر الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضارة الغربية : ١٦٧.

[١٤٩] انظر المصدر نفسه : ٦٦١.

[١٥٠] أنظر معجزة القرآن : ١٤.

النار بقوله جل وعلا ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم﴾[١٥١] كي تظهر آلهتهم المزعومة عاجزة مهانة أمام خالق الاسباب والمسببات[١٥٢].

ونخلص من هذا كله الى ان المعرفة بخاصية السببية والاخذ بها يعد كسباً كبيراً للعقل لانها تمكنه من العطاء والابداع وصولا الى الحقيقة.

المطلب الثاني

السنن وحركة التأريخ

القرآن الكريم قدم منهجا استخلص فيه القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية كشف فيه ان التاريخ البشري يسير لهدف وتحكمه نواميس تسيره في هذا الاتجاه او ذاك.

وان استعراض قصص الانبياء عليهم السلام، ومصير الامم البائدة التي عرضها كتاب الله المجيد يتبين ان القرآن كان له قصب السبق في تقرير ان الحركة التاريخية تخضع في تطورها لسنن الكون ونواميسه، وهذا المنهج القرآني الذي يخضع التأريخ لتلك السنن يدعو الى عدم الخروج عليها لانها توافقنا فطرة وغرائز واخلاقاً وفكراً، كما انه يتلائم والعلاقات في العالم الذي يعيش فيه الانسان، والذي يتسع لاستيعاب الفعل التاريخي القائم على القيم الثابتة في الكيان الانساني والتي تصدر عنها المواقف التاريخية سلباً وايجاباً، ولذلك فان الحكم على حركة التأريخ يأتي منطقياً، لان العدالة تقتضي المقابلة بالمثل والجزاء يأتي من جنس العمل، وعلى هذا الاساس يمكننا ان نرتب النتائج لوقائع تاريخية سلفاً بناء على مقدماتها واعتماداً على ثبات السنن واستمراريتها، ولذلك فان الخروج عن هذه السنن يؤدي بالنتيجة الى مواقف تناقض العدل، والقرآن المجيد حينما اكد ثبات السنن ونفاذها واوضح ثقلها في الحركة التاريخية وشمولها يريد بيان المسؤولية لأي مجموعة بشرية من خلال حركتها، لان الله جلت قدرته قد زودها بالقوى المدركة التي تميز بين العمل المخطط والواعي وبين العمل اللامسؤول الذي تنتفي فيه العلاقة الايجابية بين الخالق والمخلوق والكون

---

[١٥١] الانبياء – الآية : ٦٩.

[١٥٢] انظر معجزة القرآن : ٩-١٠.

حيث تضيع المسؤولية وتهدر القيم التابعة من العقل والروح والارادة[١٥٣] وتظهر الميزة التاريخية للقرآن الكريم في دقته المتناهية في التعبير عن الحوادث التاريخية تعبيراً موجزاً واضحاً وافياً تجد فيه ما يطمئن النفس بعبارة تحمل المعاني الكبيرة فعند قراءتك لقوله سبحانه ﴿يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾[١٥٤] تجد الآية أحتوت الحقيقة لديانة قدماء المصريين، وعندما نقرأ قوله تعالى ﴿فحشر فنادى فقال أنا ربكم الاعلى﴾[١٥٥] تلوح لنا حقيقة اخرى هي : ان فرعون كان يعد في نظر المصريين الههم الرئيس الذي بيده كل شئ، وهذا ما أكده التأريخ بعد قرون[١٥٦].

والقرآن عندما يؤرخ له طابعه الخاص واستقلاله العلمي فهو ما يعرض الحوادث يعرضها وفقا لذلك الطابع، وتلك الاستقلالية التي تظهر فيه هيمنته التاريخية بوضوح، وهذه الهيمنة تظهر بجلاء كلما أمعنا الفكر ودققنا النظر في ثنايا الآيات القرآنية، ومما يدل على هذا الطابع ان القرآن ذكر أشياء لم يذكرها الإنجيل نفسه كما في آية المباهلة قال سبحانه ﴿ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين. فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾[١٥٧] وآية حفظ القمح قال سبحانه ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون﴾[١٥٨] والايات الكريمة تؤكد لنا ثبات السنن واستمراريتها فحسب لكنها تحول تلك السنن الى دوافع تفرض على المؤمنين أخذ العبرة وتجاوز الخطأ المرتكب في الجماعات التي آل أمرها الى الهلاك، وان تستمد التعاليم والقيم من حركة التأريخ[١٥٩] التي بينها القرآن في العديد من آياته الكريمة كما في قوله تعالى ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة

---

[١٥٣] انظر حول اعادة تشكيل العقل المسلم : ٣٣-٣٦ والتفسير الاسلامي للتاريخ : ٩٧-٩٨.

[١٥٤] يوسف - الآية : ٣٩.

[١٥٥] النازعات - الآيتان : ٢٣-٢٤.

[١٥٦] انظر القرآن والعلم : ٧٦.

[١٥٧] آل عمران - الآيات : ٥٩-٦١.

[١٥٨] يوسف - الآية : ٤٧.

[١٥٩] انظر حول اعادة تشكيل العقل المسلم : ٣٦-٣٧.

المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين. ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس ليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء. والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾[١٦٠] وقال سبحانه ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات﴾[١٦١] وان مما يثير العجب الشديد ان مثل هذه الايات لم تنزل في سنة الله في المادة لكنها عالجت السنن الاجتماعية كي تنذر عواقب الكفر فكما جرت على الاولين فهي بلاشك تجري على الآخرين ان هم خرجوا عن فطرتهم، كما في قوله سبحانه ﴿وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود. وقوم ابراهيم وقوم لوط. واصحاب مدين وكذب موسى فامليت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان نكير﴾[١٦٢]. وفصل اخرى ودل على موضع الحجة والعبرة كما في قوله تعالى ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات الواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدكر. فكيف كان عذابي ونذر﴾[١٦٣]. وهذا يدلنا ان سنته عامة لا منجى منها الا بالايمان الثابت والعمل الصالح[١٦٤]. ويتجسد أمامنا صدق عموم هذه السنن، فالغرب قد بلغ مرحلة متقدمة علمياً تفرض عليه الوصول الى الحق والايمان بالخالق واحترام الخلق، ولكننا نجده قد غلب على ظنه انه هيمن هيمنة كاملة دون ان يخاف خالقاً او ان يحترم مخلوقاً نابذاً من قيمه الاجتماعية سنن الله، فاذا بنعمة العلم تنقلب عليه نقمة وهل ينسى العالم تلك الحرب التي أحرقت ودمرت قنابلها الذرية المدن وشتت شمل الناس وصدق الله القائل ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾[١٦٥] فهل أخذ الغرب عبرة ام أخذته العزة بالاثم فتمادى ببغيه ولا يزال يمتطي كبره واستعلاءه، هذا حال الغرب فما بال حال

---

[١٦٠] آل عمران – الآيات : ١٣٧-١٤١.

[١٦١] الرعد – الآية : ٦.

[١٦٢] الحج – الآيات : ٤٢-٤٤.

[١٦٣] القمر – الآيات : ٤٢-٤٤.

[١٦٤] انظر الاسلام في عصر العلم : ٦٥-٦٦.

[١٦٥] الانعام – الآية : ١٢٩.

الشرق الاسلامي يترسم خطاه في اجتماعياته بعدما تبين له خطل رأيه وماجر عليه من ويلات وفرقة، وحسبنا نور الله نعتصم به متدبرين قوله سبحانه ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾[166] وقوله ﴿واتبعوا احسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾[167] ومن لا يسمع ولا يتبع فليرتقب الهول فسنة الله لا تتخلف كما يشهد القرآن في علم الاجتماع والعلم في المادة [168].

ولم يكتف القرآن بذكر الجوانب السلبية بل ألقى الضوء على المعالم الايجابية في حركة التاريخ سلوكاً وافكاراً وفلسفات وقيماً حتى لتجد أنه يصوغ المعادلة فيضع الفضيلة والقيم ونفع المال في كفة وماتنتجه تصرفات الناس في كفة ليحكم على هذه الامة او تلك بالحضارة او الهمجية بغض النظر عن معالم الصناعة والمأكل والمشرب والملبس والمباني وغيرها لان القرآن يعد هذه الاشياء نعماً تستحق شكر الله عليه وصدق الله حيث يقول ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور. وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي واياماً آمنين. فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم آحاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور. ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين. وماكان عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ﴾[169] والذي ينظر الى المعاني السامقة والوصف الخلاب الذي يأسر القلوب فيدفعها لتشكر الله ولا تجحد، تلتزم ولا تحيد لان التنكر يولد التسيب فالاعراض فالمحق، فما قيمة الجنان بلا أفئدة تعي، وماوزن العيش الرغيد بلا خلق، ومافائدة الرزق الوفير بلا قناعة، وماثمرة السيادة بلا حق، كل هذه الماديات تعجز

---

[166] هو – الآية : ١١٣.

[167] الزمر – الآية : ٥٥.

[168] انظر الاسلام في عصر العلم : ٦٦–٦٧.

[169] سبأ – الآية : ١٥–٢٠.

كل العجز عن أن تمد الانسان بوشيجة صلة بينه وبين الكون الذي يعيش فيه، لابل هي عاجزة عن أن تضيء له درب حياته ليرى الحقائق على ماهي عليه، فالحضارات المادية ليس لديها وسيلة لايقاظ الضمائر، وتحفيز الحواس لكونها لا تعترف بكيان الانسان الباطني. واذا كانت كذلك فكيف تبلغ الانسانية رشدها وهي لا تعي ان الرشد في القلوب والنور في البصائر[١٧٠]. والقرآن يعرض ذلك بأروع مايكون العرض دقة تعبير وجمال معنى ليكون درساً لمن ألقى السمع وهو شهيد كما في قوله سبحانه ﴿الم تر كيف فعل ربك بعاد. ارم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الاوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط العذاب. إن ربك لبالمرصاد﴾[١٧١].

وبهذا العرض يتبين ان القوم كانوا اصحاب فن وعمارة وهندسة طوعوا الاحجار فشيدوا القصور وأقاموا الحصون ولكنهم خسروا أنفسهم فكانت النتيجة المحتومة العذاب صبا[١٧٢].

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن التأريخ البشري لم يغفل ان يقدم لنا نماذج حية استطاعت ان تروض حياتها وتقهر نفسها وتنمي فطرتها وتكسب صفات الخير فتعطي بلا منة ولا تأخذ الا بحق كما في قوله تعالى ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون في الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما. والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما انها ساءت مستقرا ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾[١٧٣] وقوله جل وعلا ﴿والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما. والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما﴾[١٧٤].

من هذه الصفات تتبين عناصر الخير ويتضح من هم بناة الامم ورواد الحضارات وحملة الصفات الانسانية الكريمة الذين بهم تعمر البلدان وتنار المجتمعات فيعم الخير

---

[١٧٠] انظر الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضارة الغربية : ٣٢٨.

[١٧١] الفجر – الآيات : ٦-١٤.

[١٧٢] انظر الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضارة الغربية : ٣٢٩-٣٣٠.

[١٧٣] الفرقان – الآيات : ٦٣-٦٧.

[١٧٤] الفرقان – الآيات : ٧٢-٧٤.

وينحسر الشر. والذي يقرأ التاريخ ويتدبر سيرته يتجسد امامه ان قيام الحضارات أو انهيارها هي مسؤولية المجتمعات، فالمجتمع الملتزم بما يقدم من اخلاق ينمو ويتطور ويقيم حضارة لان سنة الحياة تدور مع الصلاح الذي أشار اليه القرآن ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون﴾[١٧٥] والصالحون هنا هم الذين يصلحون لاقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله وسننه في العمران[١٧٦]. أما المجتمع الذي يتخلى عن تلكم المنهجية الانسانية والخلقية فان السقوط والانهيار مصيره، وهذا لا يتم فجأة بل يسير تدريجياً حتى يصل الى الهاوية بعدما تتجمع خلال مسيرته كل أسباب الانهيار فالسقوط وهي المرحلة النهائية قال سبحانه ﴿وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾[١٧٧] وهذا مايوحي لنا ان الخير والشر يصطرعان ولكن النتيجة المحتومة هي لصالح الخير واهله، وكما هو معروف فان الانتخاب الطبيعي يحصل وفق قوانين ونواميس وضعها الله لهذه الحياة[١٧٨]. قال سبحانه ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل، فاما الزبد فيذهب جفا. وأما ماينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال﴾[١٧٩] كما أشارة القرآن الكريم الى مداولة الايام بين الناس بقوله ﴿ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس﴾[١٨٠] وهذه المداولة تأتي نتيجة للتغير الذي يحدثه الصراع بين القيم والمفاهيم والى جانب هذا فان الله جلت قدرته حينما خلق الوجود وكلف الانسان اراد ان يختبره في عملية التمييز بين الغث والسمين بقوله تعالى ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾[١٨١] والابتلاء لا يوجد الا بوجود تغير مستمر ومانشاهده ونلمسه من تغير بفعل السنن والنواميس التي اودعها الله جل وعلا في الكون ليس امراً طارئاً بل صفة الوجود حيث لم نر

---

[١٧٥] الانبياء – الآية : ١٠٥.

[١٧٦] انظر تفسير الجلالين : ٨٣/٢ بهامش التنزيل وأسرار التأويل : ٨٣/٢.

[١٧٧] الكهف – الآية : ٥٩.

[١٧٨] انظر روح الدين الاسلامي : ٩٠.

[١٧٩] الرعد – الآية : ١٧.

[١٨٠] آل عمران – الآية : ١٤٠.

[١٨١] تبارك – الآيتان : ١و٢.

بقاء الاشياء على حالها، والتغير يحدث احيانا بصورة فورية وبفعل الارادة الالهية ﴿إنما أمره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون﴾[١٨٢] وعليه فان التغير الاجتماعي سلسلة متصلة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، لان الحاضر ليس مقطوعاً عن الماضي بل يشكل الاصول في حلقاته المتصلة والمستمرة في تجديدها فضلا عن كونه عبرة[١٨٣]. فالقرآن وضع المسارات العامة وبين مآل الاقوام ودعا الى أخذ العِظة ونبهَ على ان الحركة الانسانية يجب ان تكون في ظل القوانين والسنن التي بينها لنا القرآن الكريم في ضوء نظرته الى التاريخ سواء كانت من جانب الخلق او غاية المخلوق او استثماره للطاقات او الملكات الانسانية والتي بفعلها ودورها الايجابي يصنع التاريخ[١٨٤]. وان فهم مسار الحركة التاريخية على هذا الوجه يعد قاعدة قوية تنطلق منها للوصول الى الحقيقة لانها تعد بؤر هداية وعناوين ارشاد ومضامين عبر لرواد الحضارات.

المطلب الثالث

البحث التجريبي

إن ممايدعو الى الفخر والاعتزاز استخدام المسلمين المنهج التجريبي قبل غيرهم، هذا المنهج الذي يعني استخدام العلم في كشف اسرار العالم الطبيعي، وقهر الانسان للمادة والسيطرة عليها ويتم ذلك عبر خطواته الثلاث والتي هي : والملاحظة والفرض والتجريب[١٨٥] وهذا ماسلكه علماؤنا حيث لم يقتنعوا الا بالتجربة العلمية ودعم العلم النظري بها فكانوا يقيمون وزناً لاعمال لا تجمع بين الملاحظة والتجريب، فهذا الرازي يقول : متى كان انتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل[١٨٦] وهاهو يقيم التجربة العملية حينما أستشاره عضد الدولة في أختيار موضع مستشفى فنراه يأمر غلمانه ان يعلقوا شقق لحم في جوانب

---

[١٨٢] يس – الآية : ٨٢.

[١٨٣] انظر منهج التغيير الاجتماعي في الاسلام : ١٧–١٨.

[١٨٤] انظر الانسان والاديان : ٢٣٠–٢٣٢.

[١٨٥] انظر الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضار الغربية : ٢٩٤–٢٩٥ والله يتجلى في عصر العلم : ٤٠ والمعرفة عند مفكري المسلمين : ٣٦ والاسلام والايمان : ٤٥–٤٦.

[١٨٦] عيون الانباء في طبقات الاطباء : ١/٤٢١.

من بغدادوتركها فترة ثم لاحظها جميعاً فأختار مكان شقة اللحم التي لم تتغير رائحتها لان ذلك دليل على صحية المكان والجو بتلك المنطقة مما لم يسوغ بتغير لون اللحم ورائحته[١٨٧]. والسبب الذي دفع المسلمين الى انتهاج طريق الملاحظة والتجريب هو القرآن الكريم الذي دعا الى هذه النزعة العملية لانها خير وسيلة للاقناع، فالقرآن وجه الطاقات نحو اقامة قيم حضارية تتميز بالابداع، لان ماجاء فيه ومادعا اليه يتفق والاتجاه العقلي زيادة على حثه المتواصل للنظر والتبصر في الكون والحياة[١٨٨]. ومما يبرز اهتمام القرآن الكريم بالعلم هو تكرار لفظه ومشتقاته (٨٥٤) مرة[١٨٩]. والمتتبع لمعانيها تتجسد امامه الهداية القرآنية التي فتحت المجال واسعاً لارتياد العلم باسلوب محبب مما دفع المسلمين لخوض لجج العلم بشجاعة وجرأة وصبر فلم يقف مكتوف الايدي تفجأة بنتائج البحث فنظر وجرب ووصل الى نتائج كبيرة ومحمودة في مجالات الحياة جميعها[١٩٠]. فالعقيدة الاسلامية دعت الى ضرورة اقتران العلم بالعمل، وهذا يستلزم بحث الاسباب وملاحظة التغيرات التي تطرأ على طبيعة الاشياء، وهذا ماجعل المسلمين يرتبطون تجريبياً بالمحيط لاستثمار مافي الطبيعة لصالحهم، وعليه فان العلوم الطبيعية قد نالت اهتماماً كبيراً للتثبت من الاراء العلمية بالملاحظة والتجربة والمقارنة وكان هذا هو محور الفكر الاسلامي حتى اننا نجد علماءنا يميزون بين الطريقة الملائمة لكل علم كما ميزوا بين عالم نظري وعالم تجريبي كما بينا سلفا، ولعل السر (في ان القرآن لم يفصل القول بين القوانين العلمية المتعلقة بالمحسوسات والمشاهدات، إذ انه لو فعل ذلك، لكان ذلك منه الزاماً بالايمان بمقتضاها فيكون ذلك حملا للعقول على تبني حقائق علمية دون السلوك اليها في سبيل براهينها المنسجمة معها، وهي التجربة والمشاهدة وهذا مالا يحمل القرآن احدا من الناس عليه تكريماً للعقل واطلاقاً له ليسير في منهجه الطبيعي الى

---

[١٨٧] انظر المصدر نفسه : ١/٤١٥.

[١٨٨] انظر موجز تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الاسلامية : ١٧١ والمسلمون والعلم الحديث : ٢٩ والتفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن : ٢١.

[١٨٩] معجم الالفاظ والاعلام القرآنية : ٢/٧١.

[١٩٠] انظر القرآن هدايته واعجازه في اقوال المفسرين : ٩٠:

كشف الحقائق المحسوسة)[191]. بأستخدام الوسائل العلمية الكاشفة، وبذلك يستدل من الاثر على المؤثر ومن الخلق على الخالق بفضل الاستنتاجات التي يصل اليها العقل بانتهاج هذا الطريق، وان الذي يستقريء الايات القرآنية ويقف عندما تحمله من توجيه وارشاد وماتومئ اليه من تجارب وملاحظات ليجد ان منهج البحث التجريبي قرآني النشأة فيما يسلكه من خطوات او ما ينتهجه من أستقراء، وقد أخذت اوربا هذا المنهج عن المسلمين باعتراف واضعة عندهم روجر بيكون[192]. والمنهج التجريبي لا يجعل الطبيعة هدفه وغايته بل يتعداها والقرآن الكريم قد بين امثلة كثيرة لهذا النهج نعرض منها هذين المثالين :

قال تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام ﴿وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم أدعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم﴾[193]. يفهم من النص الحكيم إن ابراهيم عليه السلام هفت نفسه لهذا السؤال ليزداد إيماناً مع إيمانه، والسؤال بكيف لا يكون جوابه إلا بان يشهد ابراهيم عملية الاحياء وكيف تم هذه العملية، والعناصر التي تعمل فيها، وامر كهذا هو فوق مستوى الادراك البشري، انه من اسرار الالوهية، لا يتسطيع احد ان يحتمله، أو يعرف السبيل اليه، ومن اجل هذا كان الجواب آخذاً تجاهاً آخر غير متجه السؤال فيه عرض لقدرة الله، دون كشف عن سر هذه والقدرة وذلك بما رأى ابراهيم بين يديه من تجليات هذه القدرة وآثارها. وفي قوله تعالى لأبراهيم ﴿أولم تؤمن﴾ إشارة لمشاعر ابراهيم واستحضار للايمان الذي يعقد عليه قلبه ولهذا كان جواب ابراهيم " بلى " أي انا مؤمن " ولكن ليطمئن قلبي " وتلك درجة الايمان.. اذ لا سلطان للانسان على قلبه، وليس من شأن القلب ان يستقر على حال واحدة في جميع الاحوال، لما يموج فيه من شتى المشاعر، ومختلف العواطف والنزعات واطمئنان مطلقاً أمر يكاد يكون مستحيلاً، لا يبلغه إلا المصطَفون من عباد الله ! بعد ابتلاء ومجاهدة. وقوله تعالى ﴿قال فخذ اربعة

---

[191] كبرى اليقينيات الكونية : ٤٠.

[192] انظر الاسلام والايمان : ٤٨.

[193] البقرة : الآية : ٢٦٠.

من الطير فصرهن اليك ثم أجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾ هو كشف عن تجربة يجريها ابراهيم لنفسه ويصنعها بيده، ويشهد آثارها بعينه وتمر في مراحل :

١. ان يأخذ ابراهيم أربعة من الطير.

٢. ان يضمها اليه، ويتعرف عليها، ويجعل لكل منها سمة خاصة، يدعوها، وهذا مايشير اليه قوله ﴿فصرهن اليك﴾ أي تألفهن اليك.

٣. ان يقطعهن قطعاً ويمزقهن أشلاء.

٤. ان يوزع اشلاءها على رؤوس الجبال.

٥. ثم يدعوها اليه باسمهائها كما يدعو أهله ومعارفه بأسمائهم وبهذا تتم التجربة وتجيء الطور الاربعة مسرعة، وقد كان فتمت التجربة على هذا التدبير والتقدير.

هذا وفي الحديث عن الطير بنون النسوة ومعاملتها معاملة المؤنث العاقل، مايدل على انها كان في خضوعها لابراهيم واستجابتها لندائه تفعل فعل العقلاء، وتتصرف تصرف من يعي ويعقل! وهذا يعني عندما دعيت استجابت للدعوة في غير توقف او تردد لانها عندما دعيت استجابت للدعوة في غير توقف او تردد لانها تعرف وجه الذي دعاها وتفهم مدلول كلماته[١٩٤]. كما بين لنا القرآن الهمة العالية لذي القرنين الذي استطاع ان يحول الشعب الخامل الى شعب عامل قال سبحانه ﴿قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجاً على ان تجعل بيننا وبينهم سداً. قال مامكني فيه ربي فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً. آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال أنفخوا حتى اذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطرا. فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾[١٩٥]. لم يقبل ذو القرنين عرض المال من شعبه ليبني سداً يأمنون به من عدوهم، بل طلب منهم همة العمل بالايدي لبناء السد ﴿اعينوني بقوة﴾ ثم طلب منهم ان يجمعوا مواد البناء من خيرات بلادهم ﴿آتوني زبر الحديد﴾ وظل ذو القرنين يعمل معهم ﴿حتى اذا ساوى بين الصدفين﴾ طلب اشعال النار وان ينفخوا فيها ﴿قال انفخوا حتى اذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطرا﴾ أي نحاساً مذاباً ليتماسك الحديد والنحاس هكذا بني السد بخامات البلاد، واصبح الشعب الخامل شعباً عاملا

---

[١٩٤] التفسير القرآني للقرآن : ٣/٣٣١-٣٣٢.

[١٩٥] الكهف : الآيات : ٩٤-٩٧.

يجري التجارب ويختبر صلابة البناء[١٩٦]. ﴿فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾ وعليه فان السيطرة على الطبيعة والافادة من مواردها واخذ العبرة من تجاربها لتحقيق الرخاء والاطمئنان وزيادة الايمان في نفوس الناس بهذا الشكل ليُعَدُّ بحق منهجاً تجريبياً، ولسائل ان يسأل ماالاسباب الكامنة وراء النزعة التجريبية في الفكر الاسلامي وللاجابة نقول :

١. إن العقيدة دعت الى ضرورة اقتران العلم بالعمل، وهذا يستلزم بحث الاسباب وملاحظة التغيرات التي تطرأ في طبيعة الاشياء.

٢. دفع الاسلام المسلمين بما أحدثه من نضج فكري للعمل الدؤوب لما يضفي على حياتهم اليومية من فوائد جمة واستثمار مافي الطبيعة من جماد ونبات وحيوان لصالحه، كل ذلك ادى الى ارتباط الانسان تجريبياً بمحيطه.

٣. ان العلوم الطبيعية قد نالت اهتماماً كبيراً للتثبت من الاراء العلمية بالملاحظة والتجربة والمقارنة وكان هذا هو الاساس التجريبي في محور التفكير الاسلامي، ولما كان لكل علم فان العلماء ميزوا بينها واستعملوا الطريقة الملائمة لكل علم، وبامكاننا عن طريق ذلك ان نميز بين عالم نظري وعالم تجريبي، لابل اصبح من يجمع بين النظرية والتجربة هو العالم الذي يشار اليه بالبنان.

٤. وبفضل العقيدة التي حملها المسلمون دعتهم الى التثبت في النقل عندما برزت الحاجة الى التدوين، مما حدا بهم الى جمع الآراء واستقراء الاخبار ودراستها ومقارنتها والاخذ بما يعززه الدليل ويدعمه الشاهد وترك ماعدا ذلك[١٩٧].

المبحث الرابع

ضوابط المنهج المعرفي

بعد دراستنا لمحاور البحث تجلت أمامنا حقيقة هي ليس بعد منهج القرآن منهج يضارع البحث عن الحقيقة ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾[١٩٨] ومن هذه

---

[١٩٦] التفسير القرآني للقرآن : ١٦/٧٠٩-٧١١ وحتى لا نخطئ فهم القرآن : ١١٧-١١٨.

[١٩٧] انظر العلوم الطبيعية عند العرب : ٥٣-٥٥.

[١٩٨] النحل - الآية : ١٧.

النظرة العملية فالمنهج سمت به ضوابط عظيمة عن بقية المناهج نوضحها فيما يأتي :-

١.رباني المصدر والغاية وهذا مايجعله أجل منهج يوافق فطرتنا لانه سبحانه هو الذي بين معالمه ودعانا لالتزامه طريقاً للبحث عن المعرفة وفق خطاه وبؤر هدايته التي تنير لنا طريق الحق وتوقظ ضمائرنا وتفتح عقولنا حول قبول مايعرض علينا من معلومات كي نمحصها بعرضنا إياها لهدي هذا المنهج وحتماً لن نجانب الحقيقة لاننا سنصل بالنتيجة الى الطريق المستقيم الذي يوصلنا الى خالقنا جل وعلا قال سبحانه ﴿قل انني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾[١٩٩] وقال ﴿وان إلى ربك المنتهى﴾[٢٠٠]

٢.كامل لا نقص فيه، وشامل لم يترك شيئاً، منهج هذه صفته لابد من ان يُلتزم ولاسيما ان القرآن نطق بذلك الكمال قال سبحانه ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾[٢٠١] واعلن تلك الشمولية في قوله تعالى ﴿تبياناً لكل شيء﴾[٢٠٢]لابل جاء المنهج الرباني عالمياً قال سبحانه ﴿وما ارسلناك إلا رحمة للناس بشيرا ونذيرا﴾[٢٠٣] وعليه فلا أن يؤخذ المنهج متكاملا غير منقوص فأخذ جزء وترك جزء آخر إعتداء صريح وفتنة حذر القرآن منها بقوله جل وعلا ﴿واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ماأنزل الله اليك﴾[٢٠٤] وهذا الكمال والشمول يمنح الانسان الاطمئنان ويحصنه من الاضطراب لانه يقدم في كل زمان ومكان تفسيراً شاملا وحلولا ناجعة لما يشغل الفكر البشري في دنياه واخراه بلا تجزئة لمبادئه وحقائقه[٢٠٥].

٣.إنه منهج يربط الدنيا بالاخرة ويتضح هذا من بيان القرآن الذي اكد ان حقيقة الاسلام لا تتحقق إلا باتحاد شعبتيه العقيدة والشريعة في الحياة، وهذا التعانق يعدطريق النجاة والفوز، لابل ان المنهج المعرفي يعمق هذه المفاهيم بفضل مايصل اليه

---

[١٩٩] الانعام – الآية : ١٦١.

[٢٠٠] النجم – الآية : ٤٢.

[٢٠١] المائدة – الآية : ٣.

[٢٠٢] النحل – الآية : ٨٩.

[٢٠٣] سبأ – الآية : ٢٨.

[٢٠٤] المائدة – الآية : ٤٩.

[٢٠٥] انظر الخصائص العامة للاسلام : ١٣٤-١٣٥ ومنهج التفكير الاسلامي : ٥٦-٥٧.

العقل من حقائق، كما ان القرآن يسعى الى ان يبلغ الانسان الكمال، ولكنه لا ينسى طبيعة الناس وتفاوت استعدادتهم فمثالية القرآن تعني الاعتدال الشمول ﴿والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾[٢٠٦]. أما الشمولية فلا يريد القرآن الكمال بجانب والضعف بآخر، أما واقعيته فتظهر من ان التكاليف جاءت على قدر أقل طاقة للناس فالاستطاعة متوفرة للجميع والى جانب هذا هناك مستوى أرفع كمالا رغب القرآن فيه لان هناك من يملك استعداداً أعلى و لم تقف واقعية القرآن عند هذا الحد بل يسوغ مخارج عند الوقوع في حرج فالضرورات تبيح المحظورات، وهكذا نجد العقيدة والشريعة يتظاهران لابراز الصورة المشرقة للاسلام بما يعالج من امور وبما يندب اليه من عمل ومثال ذلك كثير في القرآن منه قوله سبحانه ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[٢٠٧] وقوله ﴿فمن عفا واصلح فأجره على الله﴾[٢٠٨] وقوله ﴿وان تعفوا أقرب للتقوى﴾[٢٠٩] وقوله ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾[٢١٠].

٤. لما كان المنهج الالهي منحة للانسانية فلا يختص بزمن دون زمن ولا بمكان دون مكان ولا بفئة دون اخرى فكان لابد ان يجمع بين الثبات في المقومات الاساسية حيث لا تتغير ولا تتبدل، والحركة حول المحور الثابت داخل إطاره، كي لا يحكم على الحركة الفكرية والحياة بالجمود، وضبط البشرية لئلا تضيع في المتاهات الفكرية ونظمها الحيوية وعملية الضبط لا تكون ممكنة إلا اذا رجعت الى ضابط ثابت فعلى سبيل المثال قوله جل وعلا ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾[٢١١] يمثل الثبات ولكن قوله سبحانه ﴿فمن أضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فان الله غفور رحيم﴾[٢١٢] يقرر مبدأ الضرورة الذي يمثل المرونة[٢١٣].

---

[٢٠٦] الفرقان – الآية : ٦٧.

[٢٠٧] الشورى – الآية : ٤٠.

[٢٠٨] الشورى – الآية : ٤٠.

[٢٠٩] البقرة – الآية : ٢٣٧.

[٢١٠] البقرة – الآية : ٢٣٧.

[٢١١] المائدة – الآية : ٣.

[٢١٢] المائدة – الآية : ٣.

[٢١٣] انظر خصائص التصور الاسلامي : ٨٣-٨٩.

٤. يعد العدل من الضوابط المهمة في المناهج جميعاً ولاهميته وصف الله سبحانه كلماته بقوله ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته﴾[٢١٤] وأمرنا بالعدل فقال ﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين﴾[٢١٥] وحذر سبحانه من الظلم لانه ظلمات يوم القيامة فقال ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد﴾[٢١٦].

---

[٢١٤] الانعام – الآية : ١١٥.

[٢١٥] لنساء – الآية : ١٣٥.

[٢١٦] هود – الآية : ١٠٢.

الخاتمة

بعد هذه الجولة في اسس المنهج المعرفي ووسائله وخطواته وضوابطه ظهر ان المنهج يستند الى أسس علمية دقيقة تبدأ بالمحسوس وتنتهي بالنظرة العقلية المجردة التي ميزت الحضارة الاسلامية عن غيرها، فحصنتها بحقائق قرآنية ونأت بمنطلقاتها عن النظرة العابرة، وتبين ان المنهج يعتمد على الادراك الحسي والادراك المعنوي فضلا عن استنارته بهدي الوحي، وهذه الوسائل، بلا شك، تميط اللثام عن الحقيقة المبحوث عنها ولاسيما اذا استخدمت بالصورة المثلى، وترسم المنهج خطى ثابت تقوده للحقيقة بلا تعثر فالسببية تجعل العقل يربط بين الاسباب والمسببات وعن طريقها تحصل القناعة بفضل تلكم الدلالة، هذا وان عرض مسار الحركة التأريخية يعد قاعدة ينطلق منها الباحث لانها تعد عناوين ارشاد وبؤر هداية بفضل ماتقدم من عبر، و لم يترك المنهج التجريب في كشف اسرار العالم الطبيعي لانها خير وسيلة للأقناع والاطمئنان، ويؤطر كل ذلك ضوابط سمت بهذا المنهج وجعلته يرتقي فوق كل المناهج الاخرى كيف لا وهو رباني المصدر كامل يتصف بالثبات والمرونة عادل في حكمه وقراراته يجمع بين خيري الدنيا والآخرة.

وأثبت البحث ان المنهج التجريبي اسلامي المنشأ يسعى لاكتشاف سنة كونية، او حقيقة علمية، وبين ان اليقين الذي يصل اليه الباحث عن الحقيقة يمر بثلاث مراحل هي : علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، والطريق المؤدي الى هذه المستويات من المعرفة تضبطه قواعد عامة تهيمن على العمليات العقلية، وبذلك يصل الباحث بسلام الى شاطئ الأمان بعيداً عن الهوى والعثار ليفوز بالحصول على ضالته. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

مراجع ومصادر البحث

القرآن الكريم

١. الاتجاه العقلي في التفسير – د. نصر حامد ابو زيد – دار التنوير – بيروت – ١٣٩٠ هـ/١٩٨٢ م.

٢. الاسلام في عصر العلم – محمد احمد الغمراوي – مطبعة السعادة – الاولى – ١٣٩٣ هـ/١٩٧٢ م.

٣. الاسلام دين الهداية والاصلاح – محمد فريد وجدي – دار القومية العربية للطباعة / ١٣٨٥ هـ.

٤. الاسلام والايمان – د. عبدالحليم محمود – دار النصر للطباعة – الاولى – لم يذكر محل وسنة الطبع.

٥. الانسان والاديان دراسة مقارنة – د. محمد كمال جعفر –، دار الثقافة – قطر – الاولى – ١٤٠٦ هـ.

٦. التفسير العلمي للآيات الكونية – حنفي أحمد – دار المعارف – قط – ط٢ – لم يذكر محل وسنة الطبع.

٧. التفسير القرآني للقرآن – عبدالكريم الخطيب – دار الفكر العربي – مطبعة السنة المحمدية / ١٩٧٠.

٨. التفسير الاسلامي للتاريخ – د. عماد الدين خليل – دار الانوار للمطبوعات – بغداد – ط٢ – ١٩٧٨.

٩. التفكير فريضة اسلامية – عباس محمود العقاد – دار القلم /ط١/ لم يذكر محل وسنة الطبع.

١٠. تهذيب سيرة ابن هشام – عبدالسلام هارون – لم يذكر محل وسنة الطبع.

١١. حتى لا تخطئ فهم القرآن – الشيخ محمود الغريب – مكتبة القدس – ط١/بغداد/١٣٩٦ هـ.

١٢. حركة التغيير الاجتماعي في القرآن – د.محسن عبدالحميد – دار الانوار – بغداد – ١٩٧٩.

١٣. الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضارة الغربية – يوسف توفيق الواعي – دار الوفاء – ط١/ ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م.

١٤. حول اعادة تشكيل العقل السليم – د. عماد الدين خليل – مطبعة منير – بغداد –١٩٨٥.

١٥. خصائص التصور الاسلامي ومقوماته – سيد قطب – الثالثة – ١٣٨٨ هـ/١٩٨٦ م.

١٦. الخصائص العامة للاسلام – د. يوسف القرضاوي – دار غريب للطباعة – القاهرة / ١٩٧٧م.

١٧. روح الدين الاسلامي – عفيف عبدالفتاح طباره – ط٥ – مطبعة الجهاد – بيروت – ١٣٨١ هـ/١٩٦٢ م.

١٨. الشخصية الاسلامية دراسة قرآنية – د. عائشة عبدالرحمن – دار العلم للملايين – بيروت – ط٢/١٧٧٢.

١٩. الطب محراب الايمان – د. خالص كنجو – مؤسسة الرسالة – ١٣٩١ هـ/١٩٧١م.

٢٠. ضوابط المعرفة واصول الاستدلال والمناظرة – عبدالرحمن حسن حبنكه – دار القلم – دمشق.

٢١. العقل وفهم القرآن – الحارث بن اسد المحاسبي – دار الفكر – ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م.

٢٢. العقائدالنسفية – لابي عمر بن محمد النسفي – المثنى – بغداد – ١٣٦٢هـ.

٢٣. العلوم الطبيعية عند العرب – د. ياسين خليل – مطبعة جامعة بغداد / ١٩٨٠ هـ.

٢٤. عيون الانباء في طبقات الاطباء – ابن أبي اصيبعه – دار مكتبة الحياة – بيروت / ١٩٦٥.

٢٥. القرآن العظيم هدايته واعجازه في اقوال المفسرين – محمد صادق عرجون – دار الاتحاد العربي للطباعة – ١٩٦٦.

٢٦.القرآن والعلم – احمد محمد سليمان – دار العودة – بيروت – ط٥– ١٩٨١.

٢٧.كبرى اليقينات الكونية – د. محمد سعيد رمضان البوطي – دار الفكر – ط٣ – ١٣٩٤ هـ.

٢٨.الكفاية في علم الرواية – الخطيب البغدادي –ط١١ – مطبعة السعادة – مصر – ١٩٧٢.

٢٩.الله يتجلى في عصر العلم – نخبة من العلماء – دار التربية للطباعة – لم يذكر سنة الطبع.

٣٠.مدخل الى موقف القرآن من العلم – د. عماد الدين خليل – ط٢ – مطبعة الزهراء – موصل –١٩٨٥.

٣١.معجزة القرآن – محمد متولي شعراوي – المكتبة الشرقية – لم يذكر محل وسنة الطبع.

٣٢.معجم الالفاظ والاعلام القرآنية – محمد اسماعيل ابراهيم – دار الفكر العربي –ط٢ – ١٩٨٦.

٣٣.مقام العقل عند العرب – قدوري حافظ طوقان – دار المعارف – مصر – ١٩٦٠.

٣٤.المسلمون والعلم الحديث – عبدالرزاق نوفل – دار الكتاب العربي – بيروت – ط٣ – ١٩٧٣.

٣٥.معارج القدس في مدارج النفس –الغزالي– المكتبة العالمية – بغداد – ١٩٩٠.

٣٦.مع الله في السماء – د. احمد زكي – دار الهلال – لم يذكر محل وسنة الطبع.

٣٧.المعرفة عند مفكري المسلمين – د. محمد غلاب – الدار المصرية للتأليف والترجمة– دار الجيل للطباعة – لم يذكر سنة الطبع.

٣٨.المعرفة في منهج القرآن – صابر طعيمة – دار الجيل – بيروت – لم يذكر سنة الطبع.

٣٩.منهج التغيير الاجتماعي – د. محسن عبدالحميد – مكتبة القدس – ١٤٠٢هـ.

٤٠.منهج التفكير الاسلامي – د. علي جريشة – دار التضامن – لم يذكر سنة الطبع.

٤١.المنهج العلمي للاعتقاد – شاكر عبدالجبار– مطبعة الخلود – بغداد – ط١ – ١٩٨٤.

٤٢.موجز تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الاسلامية – طه باقر – مطبعة جامعة بغداد – ١٩٨٠.

٤٣.نزهة النظر شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الاثر – ابن حجر العسقلاني – المكتبة العلمية في المدينة المنورة – مطبعة البيان – بيروت – لم يذكر سنة الطبع.